نظرات في الفلسفة والأدب

— ٣٢ —

تتمة نظرات ابن المقفع

للأستاذ [illegible]

(٤) [illegible] بلية خلصت منه في آخر لعلك لا تخلص منه — وقد يخلص الناس من بلاء [illegible] يوقعهم في بلاء آخر ويوهمون أنفسهم أنهم ربما وجدوا خلاصاً سهلاً من هذا البلاء الآخر متى شاءوا بعد اتخاذه وسيلة الخلاص من البلاء الأول، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذي يخلص من بلاء بكذبة موبقة وادعاء يوقعانه في مؤاخذة لو عرف بطلان [illegible] عاقبته، أو مثل الذي يتجنى على آخر ثم يحاول أن يخلص من عاقبة جنايته بجناية أخرى.

(٥) [illegible] رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمي جاهلاً، ولعله إن حاسب نفسه [illegible] وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك الطريق المخوف، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل مما جربه هو أو أعلمه به غيره [illegible] كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشره على [illegible] رديئه وترك ما هو أقرب الى النجاة والتخلص من علته، وأقل الناس عذراً في اجتناب [illegible] الأعمال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعضه [illegible] أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل [illegible] حفرة فوقعا فيها، كانا [illegible] بعد [illegible] الحفرة، غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير، وإن كانت [illegible] بصراً وهذا مما صار إليه جاهل — (والفيلسوف [illegible] سقراط رأي [illegible] الشر، وهو يقول كما روى أفلاطون عنه إن المرء لا يرتكب الشر ويختاره وهو يعلم [illegible] يتجنب الخير وهو يعلم أنه خير، ولعله يعني أن الأهواء تعمي عن بصيرته [illegible] جهلاً فتوهمه أن في عمل الشر خيراً أكبر، وفي تجنب بعض الخير خيراً أعظم [illegible] العلم كما رواه الجاحظ في كتاب البيان والتبيين [illegible] [illegible] والاستنابة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير آمرة به)

(٦) إن في الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب اذا غضب [illegible] التكشير والتقطيب في وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له [illegible] بهم [illegible] وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا [illegible] الرضا [illegible] أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده [illegible] أعطاه، ويكرم من لا حق له ولا مودة. فاحذر هذا الباب كله فإنه ليس [illegible] أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم في غضبهم وسرعة رضاهم، فإنه لو وصف بصفة [illegible] بعقله ويتخبطه المس من يعاقب في غير من أغضبه، ويحبو عند رضاه غير من [illegible] جائزاً في صفته — (وهذا يذكرنا الأمراء الذين كانوا يعاقبون بالقتل [illegible] يبلغونهم خبراً سيئاً، كما رأينا في قصة تيوفيل جوتييه، كما يذكرنا أيضاً [illegible] الايطالي الذي كان يمنع من خدمه ومن لم يخدمه من خدم النزل والمطعم [illegible] لا أحسن إليه حتى خشية احتقارهم اياه لأنه كان به الشعور بالنقص)

(٧) اعلم أن بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر، وان شدة الاتقاء قد تدفع اليك ما تتق (ونزلي بك ما تخاف عن تخاف ، لأن الافراط في الحذر قد يؤدي الى الحيرة والارتباك والقلق والتعلق بمظاهر الريبة، والمريب متهم والريبة تجذب عداوة الناس الى صاحبها كما يجذب المغناطيس الحديد)

(٨) قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك، وتذل نفسك، ويرغب عنك ناصرك، ومثل ذلك مثل العود المنصوب في الشمس إن أملته قليلاً زاد ظله وان جاوزت الحد في إمالته نقص الظل — (وفي التذلل للعدى يقول ابراهيم بن العباس صاحب المقطعات الجامعة :

يصبح [illegible] على ثقة منه وخلانه على وجل

تذللا للعدو عن ضعة وصولة بالصديق عن خطل

(٩) [illegible] أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فيكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها ، وباباً يفتتحونك منه ، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها، واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده، فان الراد له محمود، والقابل له معيب — (أين هذا الأدب من هراء سعيد الكبير الذي القول المنسوب إليه : شربت الخطب ريا، ولم أضبط لها رويا، ففاضت ثم فاضت، فلا هي نظاماً وليس غيرها كلاماً)

(١٠) أمور لا تصلح إلا بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الفقه بغير عقل ولا شدة البطش بغير شدة القلب ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا الحسب بغير أدب ولا السرور بغير أمن ولا الغنى بغير جود ولا المروءة بغير تواضع ولا الخفض (أي اليسر) بغير كفاية ولا الاجتهاد بغير توفيق — (وإلا أدى العقل إلى الفساد ، والفقه إلى الخطأ والبطش إلى الانكشاف والانخذال، وكان الجمال سمجاً، وكان الحسب دناءة وشراسة، وورث السرور همّاً وقلقاً، وكان الغنى بخراً ولؤماً، والمروءة منّاً والخفض عسراً لا يغني والاجتهاد عناء وخيبة)

(١١) إن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار وجعلته تجربته في صحبتهم على الخطأ — وأقل ما يكون من ذلك أن الأخيار اذا عاملوه بالكرم والخير واللين حسب كل ذلك منهم تخلقاً وشركاً يريدون أن يوقعوه فيه — وقد يغالي فيحسب كل بريء متهماً حتى تظهر براءته، بدل أن يحسب كل متهم بريئاً حتى تظهر إدانته ، وبطبيعة عملهم ومقابلتهم للأشرار، يميل رجال الشرطة ومن شابههم إلى سوء الظن بالناس .

(١٢) اذا أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمور من غير أن تظهر منك الهيبة فيفطن الناس لهيبتك ، ويجرئهم عليك ظهورها ، ويدعو اليك منهم كل ما تهاب . فأشعب طائفة من رأيك لمداراة ذلك من كتمان المهابة واظهار الجرأة والتهاون . وإن ابتليت بمجاورة عدو مخالف، فالزم هذه الطريقة التي وصفت لك، من استشعار الهيبة واظهار الجرأة والتهاون، وعليك بالحذر في أمرك، والجرأة في قلبك، حتى تملأ قلبك جرأة، ويستفرغ الحذر عملك - (وانما يريد بالهيبة ذلك الحذر الذي يصون عمله من الخطأ)

(١٣) ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلمتك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك ، وبقاء عزك : — (ليس لين الكلمة وحسن البشر نقصاً ومذلة كما يحسبها ذوو النقص . قال المأمون كما روى الثعالبي : ما تكبر أحد إلا لنقص وجده في نفسه ولا تطاول إلا لوهن أحسه منها)

(١٤) اذا نابت أخاك نائبة من النوائب ، من زوال نعمة، أو نزول بلية، فاعلم انك قد ابتليت معه إما بالمؤاساة فتشاركه في البلية، وإما بالخذلان فتحتمل العار، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك، وآثر مروءتك على ما سواها، فان نزلت الجائحة التي تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل (أي في معاملته وعند ذكره ولقياه) فلعل الإجمال يسعك لقلته في الناس (أي أن كثيرهم ينقلب ضد صديقه عدواً كي لا يقال إنه خذل صديقاً)

(١٥) أعرف عوراتك وإياك أن تعرّض بأحد فيما شاركها، واعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال في التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم، وكل ذلك أبين عند سامعه من وضح الصبح، فلا تكونن من ذلك في غرور ولا تجعلن نفسك من أهله.

(١٦) من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول، أو الرجل يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم، أو يتمنى أن يعرف صاحبه قد فرغ وأنصت، فإذا أنصت لم يحسن الكلام.

(١٧) وقّر من فوقك ولِن لمن دونك، وأحسن مؤاتاتك الأكفاء، وليكن آثر ذلك عندك مؤاتاة الاخوان، فإن ذلك هو الذي يشهد لك بأن إجلالك من فوقك ليس بتملق لهم، وان لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم.

(١٨) إن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة، وليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز، بل ربما أعيى الحزمة ما أمكن العجزة، فإذا أشار عليك صاحبك برأي فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعذلاً، تقول أنت فعلت هذا بي وأنت أمرتني، ولولا أنت ولا جرم لا أطيعك، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو ترك فبدا صوابك فلا تمنّن ولا تكثرنّ ذكره، ولا تلم عليه إن كان استبان في تركه نصحك ضرراً، تقول ألم أقل لك؟ ألم أفعل، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء.

(١٩) العجب آفة العقل، واللجاج قعيد الهوى، والبخل لقاح الحرص، والمراء فساد اللسان، والحمية سبب الجهل، والأنف توأم السفه، والمنافسة أخت العداوة. — : (فالمعجب بنفسه يزين له عجبه الخطأ فلا يراه خطأ، واللجوج الحجاج كثير العناد في الدفاع عن هواه، والبخل يربيه الحرص وينميه حتى يستفحل ويحرم نفسه وغيره مما وهبه الله، والمراء يستدرج إلى بذاءة اللسان، والحمية إذا استشرت كانت من دلالات الحمق، والأنف نفسه من التسامي في معاشرة الناس يؤدي إلى السفه، والمنافسة في حطام الدنيا كثيراً ما تؤدي الى العداوة بين الآحاد والأمم.)